

جامعة الأزهر

المؤتمر العلمي الدولي الخامس

لكلية اللغة العربية بأسيوط

تَأْصِيلُ الْمَوْقِفِ مِنِ اسْتِرْفَادِ الْعَقْلِ الآخَرِ فِي الدِّرَاسَاتِ الإِنْسَانِيَّةِ

إعداد

أ.د/ مَحمُود تَوفِيق مُحمّد سَعْد

أستاذ البلاغة والنقد ــ بجامعة الأزهر

(المجلد الأول)

١٤٤٣هـ /٢٠٢١م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ • الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • مَالِكِ يَوْمِ الــدِّينِ اللَّهُــمَّ صَــلِّ ، وسَلِّمْ ، وَبَارِكْ عَلَى سيّدنــا مُحَمَّدٍ وعلى آلِ ســيّدنا مُحمّــدٍ وأَزْوَاجِــهِ وَذُرِّيَّتِــهِ وصَحابتِه ، كمَا صلَّيْتَ ، وسلّمتَ وبَاركتَ عَلَى سَيّدِنا إبْراهِيمَ وعلــى آلِ سَــيّدِنا إبْراهِيمَ ، إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ عددَ خَلْقِكَ ، ورِضاءَ نفسِك ، وزِنَةَ عَرْشِــك ، وَمِــدادَ كَلماتِك ، كمَا تُحِبُّ رَبَّنَــا وتَرْضَي ، وكَما يَلِيقُ بكَمالِ جَلالِكَ وجمَالك ، وكَمَا يَليق بمقَامِهِ ﷺ عِنْدَك إنّك وَليُّ ذلِكَ والْقَادِرُ عَلَيْه والْمُتفضّــلُ بِــهِ ،والْحَمْــدُ للهِ ربِّ الْعالَمِينَ .

•••••••••

تَخْلِيصٌ

تَعْمَدُ هذه الوَرقة إلَى تَبْيِينِ العَلاقَةِ فِي مَجالِ الدِّراسَاتِ الإنْسانِيّةِ بيْن عَقلَـيْن تَبايَنا مَصْدرًا وَوظِيفَةً ، فتَبَايَنا أَثرًا :"العَقلِ المُسْلِمِ" و" الْعَقلُ الآخَر" وإلَى تَأصِـيلَ عَلاقَةِ اسْتِرْفادِ الأوّل من الآخر، وضوابط ذلك الاسْـترفاد؛ ليكـون مـن ذلـك ما يضبط حركة هذه العَلاقَة ، وَمُسْتَواها كيْما لَا تَضِيعَ الفارِقـاتُ الرَّئِيسَـةُ بَـيْن العَقليْن مَصْدَرًا وَمَنْهَجًا وَسُلُوكًا وَأثَرًا . فكل علاقة بيْن طرفيْن لا تتبيّن حـدودها وضوابطها إنما تفضي إلى ما لا يُرْتَضَى ،وهذا ما تسْعَى هذه الورقةُ – إنْ شَـاء الله تعالى – إلى الوفاء ببعضِ حقّه واللهُ هو الْمسْتعان علَى ما يُرضِيه.

(توطئة)

هذه ورقةٌ عَملٍ عِلْمِيّ تسعَى إلَى النّظَرِ المَنهجِيِّ فِي شأنِ اسْـتِرْفادِ "العَقــلِ المُسْلمِ" مِن العقلِ الآخَرِ فِي باب "الدّراسَاتِ الإنْسانِيّةِ"، وتَأصِيلِ ذلك "الاسْــتِرفادِ" وضَوابِطِهِ .

ورقةٌ لَا تزْعُمُ أنَها تُبِينُ عَن حقائقَ استَنْبَطَها بَحثٌ عِلمِيٌّ فِــي مــا اسْـتقرَأ، ولا تزعُمُ أنّها إلَى رَصْدِ واقِعِ ما فِي الاسْترْفادِ مِنْ مناقِبَ ومَثَالِبَ ، فذلك أمرٌ عِنْدَ أُولِي الألْبابِ هُوَ والشَّمسُ ظهيرةَ صَيفٍ جَلاءً سَوَاءٌ .

هِيَ ورقةٌ تَقتَرِحُ مَوقفًا عِلميًا مِن استِرفادِ "العَقلِ المُسْلِم" مِن العَقلِ الآخَرِ فِــي بابٍ منْ أبوابِ العِلمِ ذِي خُصُوصِيّةٍ بهذا "العَقل المُسْلِم" ؛ لِيتخِذَ مِنْ ذلــك مِنهــاجَ نَظرٍ عِلميّ مَعصومٍ مِن عادِياتِ الشّبهاتِ الصّادَّةِ عَــن الحَــقّ ومِــنْ شّــهواتِ المُراهَقةِ الفِكريّة المُفسِدةِ علَى المَرْء سَعيَه ، فعُظْمُ مــا تُبْتلَــي بِــهِ الدّراســاتُ الإنْسانِيّةُ ، مِنْ عُقْمٍ وعَجزٍ عنْ تَجدِيدِ حَركةِ الحَياةِ وتَطْويرِها مَعْدِنُهُ تِلْكَ الشُّبُهاتِ والشّهَواتِ . وقد نَعَى اللهُ ﷻ عَلَى منْ خاضَ في أمرٍ مقلدًا سابقِيه فيه فَقــال : ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَــاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّــذِي خَاضُــوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (التوبة:٦٩)

الاستمتاع بالخلاق :النَّصيب مِن مَتاعِ الــدّنيا ، مَبعثُــه سـلْطانُ الشّــهواتِ والخَوض في الكفرِ مَبْعَثُهُ سُلطانُ الشُّبُهات.

وقد جَاءَ فِي حَدِيثٍ مُرْسَلٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْبَصَرَ النَّاقِدَ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبُهَاتِ وَيُحِبُّ الْعَقْلَ الْكَامِلَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّهوَاتِ» ، (١)

ورقةٌ تسْعَى إلى أنْ تُميطَ اللّثامَ عَن الضَّوابطِ العَواصِمِ مِن القَواصِمِ فِي علاقةِ "العَقلِ المُسلِمِ" بالعقلِ الآخَرِ فِي المَنْهَجِ وَالأداةِ وَالمَغزَى .

ما هي بورقة بحثيّة تسْتكشف حقيقة أوْ تحلّ معضلَةً، كما هو الشَّأنُ في ما هو"بحثٌ عِلميٌّ" كَلَّا. هِيَ "وَرَقَةُ عَمَلٍ" أيْ ورقةٌ تَسْتَوْجِبُ تَحْوِيلَها مِنْ بَعدِ سَبْرِها وَتَقْوِيمِ عَوَجِها مِن قولٍ إلَى فِعلٍ حكيمٍ يَقومُ لَهُ وَبِهِ مُرابِطُونَ علَى الثّغورِ المُتكاثرةِ صَباحَ مساءَ ، فالثُّغورُ الفِكريةُ في حُدُودِ الأمةِ أكثرُ وَأخْطَرُ مِنْ ثغورِ تُخومِها ،والمرابطُونَ علَى ثُغُورِها الفِكْرِيّةِ ألْزمُ بِكَمالِ اليَقظَةِ والعُدّةِ، وكَمالِ المَهارَةِ دفاعًا .

ليستْ قيمةُ هذه الورقةِ في ما رُقِنَ فيها منْ حيثُ هُوَ قولٌ يُنْبئُ عَنْ رُؤْيَةٍ . قِيمَتُها الحَقّةُ أنْ يُسْبَرَ مَا فِيها ، وَيُقوّم ، ويُسْتَكْمَلَ ـ، ثُمَّ يُرَقّى مَا فِيها مِنْ قَولٍ إلَى عَمَلٍ فعيل في الأمّةِ ، فَقَولٌ لَا يُفْضِي إلَى عَمَلٍ مَاجدٍ إنّمَا هُوَ ثَرْثَرَةٌ جوفاءُ خَلاءٌ مِن الخَيرِ ، وَذَلِكَ ما لَا يَليقُ بتّةً بِذِي مَرُوءَةٍ

••••••

(١) أورَدتُه اسْتِئناسًا، لا اسْتِدلالا، و أخرجه البيهقيّ في كتاب" الزهد" و أبو نُعيم في" حلية الأأولياء"

وانظر كيف جعل "البصر النافذ" أي "الاسْبصار"السبيلَ إلى الاتقاء من"الشبهات" لأنّها أشد فتكًا، وجعل العقل الكامل أي"التعقّل والمنع من الشّيْءِ السبيل إلى اتقاء ضُر الشهوات ،فهي أقل ضُرًا من الشبهات ، فمن كان داؤه شبهة تعسّر برؤه ، ومن كان داؤه شهوةً تيسّر برْؤُهُ وجلُّ أحبار العقلانية والعلمانية واللبرالية والحداثية داؤهم شبهات متراكبة .

تحريرُ مكوِّناتِ مَوضُوعِ الورَقَةِ وَضَوابِطِ كلّ مكوّنٍ

بُنِيَ مَوضُوع الْورَقَة علَى خَمْسٍ :

١ــ الاسْتِرْفادُ ومقتضِياتُهُ .

٢ــ صانِعُ الاسْترفاد: "الْمُسْتَرْفِدُ/ العَقْلُ المُسلِم ".

٣ــ المُسْتَرْفَــدُ مِنْه "العقلُ الآخَرُ" (غَيْرُ المُسْلِمِ)

٤ ــ مجَالُ الاسْتِرْفادِ .(الدِّراساتُ الإِنْسانِيّةُ)

٥ــ الْمُسْتَرْفَد (المَحْمُول المَعْرِفِيّ).

(**أَوّلًا**) : **الفِعلُ المَنَظُورُ فِيه هُوَ " الاسْتِرفاد" وَضَابِطهُ** .

الاسْترفادُ" اسْتفعالٌ مِن "الرِّفد" والرِّفْدُ (بِالكَسْرِ) المُعاونَة والمُظاهَرةُ بالعَطاءِ وغيره. وتَرافَدُ القَومُ تعاونُوا علَى أمرٍ فالاستِرفاد : الِاستِعَانَةُ .

عَمُودُ الاسْترفادِ الّذِي إليْهِ أقصــدُ إنمــا هُــو اســتعانة اسْــتهداءٍ بِــآخَرَ لِعَجزِ الْمستوْفد عَنْ تَحصِيلِ ما هو بِحاجةٍ إليْهِ فريدًا.

هو اسْترفادٌ (اسْتهداء) مقيّدٌ بشرْطيْن:

الأوّل : عجز المسترفدِ عَنْ تَحصِيلِ ما يَسّدُّ حاجَته ، ومَا يكفِيه مِنْهُ بِمُفرَدِه.

والآخر : ضَرورةُ التَّحصِيلِ ، وخطرُ الاسْتغناءِ و شِدَّةُ الحاجَةِ إلَى ما يسْتَرْفِدهُ.

ومنطقُ العقلِ السّويّ والمَرُوءَةِ أنّ الْمرْءَ لَا يَعْمَدُ إلَى"الاسْترْفادِ" مِن الآخَرِ إلّا بِهَذيْنِ الشَّرْطيْنِ الكُلّيين .

وَإِذا مَا كَانَ الإسْلامُ قَدْ حَذَّرَ مِن اسْترفادِ الْمرْءِ طَعامَ جَسَدهِ ، وَهُوَ مقتَدرٌ عَلى الْكسْبِ ، فإنّ التّحذيرَ مِن اسْترفادِه طَعامَ قلبِه (عقلِهِ) وَهُوَ مُقتَدِرٌ علَى كسْبِ مــا يَكْفِيكَ أشدُّ .

الاسْترفادُ اسْتهداء أنْ تنْظرَ فِي صَنِيعِ غَيْرِك مَا أنتْ مفتَقِرٌ إليْــه ، فَتَهتَــدِيَ بِشَيْءٍ مِنْ منـهاجِهِ وَمهارتِه وخِبْرَتِه وأدواتِه بما يتَواءَمُ مَعك عقيدةً وخلقًا ، فتقومُ إلى ما أنتَ إليْهِ مُفتقِرٌ خيرَ قِيامٍ غيرَ مقدّسٍ،ولا مُسْتعبَدٍ. وذلكهو غير الْمسْترذلِ .

"الاسترفادُ" الرّدُّ إنّما هُوَ اتخاذُ "العَقلِ المُسْلِم" مُنتَجَ العقــلِ الآخــر (غيــرِ الْمسْلِم) وثُمُرَ صنْعتِهِ زادًا بَديلاً أو مَزيجًا فِي سَعْيهِ إلَى تلقّي العُلــومِ الإنســانيّةِ وخِدْمتِها تَجدِيدًا وتطويرًا واسْتثمارًا .

ذلِك ما لا تُسْترْضَي أيُّ صُورةٍ مِنْ صُوره . وكلامُنا لَيْس فيه، ولَا فِي شــأنِ الآخِذينَ به ، المسْتمرئين رجيعَ الآخَرين.فذلك لا يحتاجُ ذو مروءةٍ إلَى أنْ ينبــه إلى خطرهِ وَمعرّتِهِ .

الّذِي نَحْنُ بِصدَدِ الْقَولُ فِيهِ إنَّما هوُ الْبَصرُ النّافذُ بالرُؤيةِ والمَوقِفِ وبمِنهــاجِ الفِعل ، ثُمَّ سَبْرُ ذلِك كُلِّهِ سبرًا مُتغوِّرًا متدسّسًا وتقويمُهِ تقويمًــا لا يَــدعُ أصْــلًا ولا فرعًا ، وَلا شارِدةً ولَا واردةً ، إلَّا عَايَرَهُ وقوَّمَه علَى أُصُولِ العَقيدةِ الإسْلامِيّةِ وضَوابط الشّريعة ،وسُنّةِ اللّسانِ العَربيِّ فِي الإفْهامِ في بَصرٍ حكيـــمٍ وصَــبْرٍ جميلٍ وموضُوعيّة مُحيطةٍ.

نَحْنُ لَا نسْترفِدُ ؛ لِنطْعَمَ ما أَنْتَجَ صُنْعُ العَقْــلِ الآخَــر، فَلَــا نَعْــدُو أن نكــونَ مستهلِكينَ.

نَحْنُ نَسْترْفِدُ ؛ لِنعْلَمَ الرُّؤيَةَ الفَلْسَفِيَةَ وَالْعَقدِيّةِ الّتِي انْبَثَقَ مِنْها الفِعلُ الّــذِي أثْمَرَ، وَلِنَعْلَمَ مَوقِفَ الْعقلِ الآخرِ في إنتَاجِهِ ذّلك الثّمرِ ، والْمنهاجَ الِّي الْتَزمَ بِــه فِي صِناعَتِهِ ، والأدواتِ الّتِي اتّخذَها لإنْفَاذِ ذَلكَ الْمنْهج وَالضّوابط الّتِي الْتزمَ بِهــا فِي مُمارَستِهِ الرّؤْيَةَ وَالْموْقِفَ وَالْمنْهجَ والتّنفيذَ . نَسْترفِد لنعلَمَ ذلِك كلَّــه . نعلــمُ لِنَعْمَلَ خيرًا منْهُ ، لا نعلمَ لنطعَم ثم نتجشّا . كلاَ. لا يَكون منْ ذي مروءةٍ في طلبِ العلم وخدمتِهِ .

بسَطتُ البيانَ عَنْ هّذَا وعن ضابِطه وصرّفته ؛ ليتمكّن في الأفئِــدَةِ ؛ فيكــون حاضرًا فعيلًا . وتلك سُنّةٌ بيانية للقرآنِ في تَمكِين الأصولِ والكُليّاتِ فِي الأفئدة.

﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾(الأنْعَام: ٦٥)

يَتحدّدُ لك بهذا سِماتُ الفعلِ ومُقتضِياتُ اختياره وإنْجازِهِ ، ممّا يفصِــلُه فِــي وَعْيِكَ عَن ما قَد يَشْتَبِهِ بِه ، فتكونُ على بيّنة بِما هُو مناطُ النّظرِ والقَولِ .

(ثانِيًا) " المسْترفِد (صَانع الاسْتِرْفاد)

هُو العقلُ المُسلِمُ أيْ العَقلُ المُنضَبِطُ اعْتِقادًا وَسُلُوكًا بِالإسْلامِ كتابًا وَسُنّةً .

هُو عقلٌ قُوامُ حركتِه فِي جَمِيعِ شؤونِه علَى تعدُّدِها وتنوّعِها قولُ اللهِ ﷻ : ﴿ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ (الإسْراء:١٩).

أصْلان:﴿ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ ، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ جاء نَظمُهما فِي البيانِ القُرآنِيِّ على نَحوٍ كاشِفٍ عنْ قِيمةِ كلٍّ وأهميتِهِ ومقدارِ الإلزام بكلٍّ .

هُوَ عقلٌ منْ ضَوابطِ حركتِهِ تأصِيلاً واستِمدادًا واسْتِرْفَادًا قولُ اللهِ تَعالَى : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً ﴾ (الإسْراء:٣٦)

الأوّلُ بيانٌ للأُصُولِ ، وهذا بيانٌ للضَّابط العاصِمِ مِن القَواصِمِ . وَمَن لَمْ يَكُنْ مَلِيكًا لِلأُصُولِ والضَّوابِطِ فِقهًا وَعِرفانًا والْتزامًا ، فما هُوَ بالَّذِي نَحنُ إليْه نَقصِدُ:"العَقل المُسْلِم".

وَطَرِيفٌ لَطِيفٌ أنْ كانَتْ آيةَ الأَصلِ ، وَآيَةُ الضَّابِطِ لِحَرَكةِ الْعَقلِ المُسْلِمِ فِي سُورَةِ "الإسْراءِ" : سُورَةِ كَمالِ الْمَعِيَّةِ الرَّبَّانِيّةِ لِسَيّدِ البَشَرِيَّةِ الّذِي كَمُلَتْ فِيهِ العُبُودِيّةِ للهِ ﷺ : ﴿ بِعَبْدِهِ﴾ فَكانَ العَطاءُ الأكْملُ:﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) والّي كملَتْ فِيه أداةُ تلقّي ذَلِكَ العَطَاءِ الربّانيِّ الأَوْفَى:﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أيْ هُو ﷺ

العَبْدُ السَّمِيعُ البَصيرُ حقًا عَلَى نَحْوٍ لَمْ يَكُنْ لِغَيرِهِ مِنَ الأنْبياءَ ، كَما لَمْ يَكُنْ لِغَيرِهِ مِن الأنْبياءِ مَا كَانَ لَهُ ﷺ مِن كَمَالِ العُبُودِيّةِ والعِبادِيّةِ للهِ ﷻ .[١]

تبصّر مقتضِيات الاسْتحقاق﴿بِعَبْدِهِ﴾،﴿إِنّهُ هُو السّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ . لَمّا كانَ كذلك كانَ ﷺ الجَدِيرَ بالعَطاءِ الأَوْفَي: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ فَمَنْ كان لَه نَصِيبٌ مِنْ أمَّتِهِ مِنْ مَقامِ العُبُودِيَّةِ وَالعِبادِيّةِ لله ﷻ ﴿ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ﴾ كانَ له نَصِيبٌ علَى قَدْرِ ذَلِكَ مِن الْعطاءِ الأوْفَى: ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ ويزيدك وعيًا بشَيْءٍ مِنْ جلالِ هذا العطاءِ الأوفَى إذا استطعمْت إسناد إرَاءَتِه ﷺ إلى "نون" الجلال ﴿ نُرِيَهُ ﴾ وإضافة الآياتِ إليْها ﴿آيَاتِنَا﴾.

قِيمَةُ الفِعلِ مِن جَلالِ شَأنِ الفاعلِ ﴿نُرِيَهُ﴾، وقيمةُ المُضافِ إليْهِ مِن جَلالِ شَأن المُضافِ ﴿آيَاتِنَا﴾. أَوَ يَمْكِنُ لِفُؤادٍ ، وإن اتَّسَعَ اتّساعِ السَّماواتِ السّبعِ والأَرَضِينَ السّبعِ أن يُحيطَ علْمًا بتلك القيمةِ ؟ لا يَكون.

كلُّ هذا لَا يُمكنُ أن يتحقَّقَ نزيرٌ من حسْن تلقّي المَعانِي الإحْسَانِيَّةِ المَكنُوزَةِ فِي هَذِه السُّورَةِ سُورَةِ الْعَطاءِ الأوْفَى لِمَقَام النّبوَّةِ الْمُحمّدِيَّةِ إلَّا لِمَنْ كان له قدمُ صِدقٍ في مقَام "العُبوديّة" الصّفاء و"العباديّة" النّقاءِ، وكانَ له نصيبٌ موفورٌ مِن السَّمْعِ الحَكيم، والبَصَرِ النَّافذِ المُحيطِ.

---

(١) في احتمال أن يكون مرجعُ الضمير في:(إنه) إلى الحقّ ﷻ ، وأن يكونَ مرجعه هو سيّدنا محمّد صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلهِ وصَحبِهِ وسلّم تَسْلِيمًا كثيرًا. احتمالاً متعادلاً مسلكٌ من مسالك اتساعِ المعنى في الأفئدة، ومسالك اتساع المعنى القرآني جد كثيرة . فَمِنٌ رصدها وتبصرها تدبرًا .

وسُـــورة "الإسْراءِ" سُورةٌ جَاءَتْ تَفْصِيلًا لِما خُتِمَتْ به سورةُ "النّحْل": ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ فكانَتْ سُورَةُ " الإسْراء" بيَانًا لِلْمَعِيّةِ القُدْسيّةِ الأجَلِّ .

التَّبصُّرُ المُتَدَبّرُ نَظمَ هاتَيْنِ الآيَتيْنِ الوَارِدتَيْنِ فِي هذِهِ السُّورَةِ بِهِ يُدْرَكُ عَظِيمُ الإلزامِ القُرآنيّ لِهذا العَقلِ :العَقلِ المُسْلِمِ .

عقلٌ يَسْعَى لِلْحَقِّ وَالْخَيْرِ سَعْيَهُمَا ،وهُوَ مُؤْمِنٌ.

عَقلٌ لَا يَقِفُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ . عقلٌ يَكفُرُ بِالتَّقْلِيدِ الأَجْرَدِ مِن سبْرِ الأَدِلَّةِ والبَراهِينِ ، والأجردِ مِن الْوَعْيِ بِالبَواعِثِ وَالمَقاصدِ وبِمَنْهَجِ الفِعْلِ وَأضدَواتِهِ . يَكفُرُ بِهذا التّقليدِ الأجْرَدِ ويُجَرِّمُهُ . ويكفرُ بالاسْتجداءِ منْ غَيْرِهِ وهُو مقتدرٌ على أن يَطْعَمَ منْ عمَلِهِ.

عَقلٌ يَسْتَمِدّ مِن الوَحْي قُرْآنًا وَسُنّةً رُؤْيَتَهُ المَعرِفِيّةَ لِلْحَيَاةِ كَوْنًا مُسَخَّرًا وإنْسَانًا مُسَخَّرًا لَهُ الكَوْنُ ، وَيَسْتَمِدُّ مِنْهُ – أيْضًا – مَنْهَجَهُ السّلوكِيّ فِي تَفْعِيلِ هَذِهِ الرُّؤيَةِ المَعْرَفِيّةِ واسْتِثْمارِهَا .

عَقلٌ يُوقِن بِأُمـــورٍ رَئِيسَـــة:

= يُوقِنُ أنّ مُنْطَلَقَهُ الّذِي يَصْدُرُ عَنْهُ : " بَيانُ الْوَحْي"، يَمْلِكُ الحَقيقةَ المُطْلَقةَ الَّتِي لَا سَبيلَ إلَى نقْضِها بأيّ سَبِيلٍ مِن سُبُلِ النَّقْضِ القَويمَةِ . إنَّها مِن اللهِ ﷻ ، وَمَا كانَ مِنْه ﷻ لَا يُنْقَضُ بَتّةً

= ويُوقِنُ أنَّ فعلَهُ هُو فِي هذِهِ الحَقِيقةِ المُطلَقة لا يَملِكُ الحَقيقةَ المُطلقة ، ولا يَمْلِكُ الصَّوابَ الَّذِي لَا يَعْتَرِيهِ الخَطَأُ . فِطْرَةٌ فِي العَقلِ الْبشَرِيّ أن يُخْطِئ . هُوَ يُوقِنُ أنَّ فعلَه فِي هذَا الّذِي يَصدُرُ عَنه قابلٌ لِلتّجدّدِ ، بلْ لِلتّغيُّرِ ، بلْ قابلٌ لِلنَّقدِ ، ولِلنّقضِ . إنّهُ فعلٌ بشريٌّ فِي أمْرٍ إلهيّ .

الفاعِلُ : "العقلُ البَشَرِيّ المُسْلِمُ" غيرُ مَعْصُومٍ .

والمَفْعولُ فِيهِ " بيانُ الوَحْي" مَحْفوظٌ حِفظًا إلَهيًا غيرَ مَحْدُودِ الأثَرِ بزمانٍ أوْ مكانٍ أوْ جنسٍ . ﴿ إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحِجْر: ٩)

= ويُوقن أنّ كلّ ما عدَا القرآن والسّنّة النّبَويّةِ مِن البَيانِ لَا يَملِكُ الحقَيقةَ المُطلقة ، وما فيه منْ خطإٍ أو خَلَلٍ أَوْ دغلٍ لا يَقلّ كثيرًا عمَّا فِيه مِن غَيْرِ ذلك أيًّا كانَ صَانِعُه مقامًا في العِلْمِ والإتقانِ.

= وَيُوقِنُ أنّ فِي الحياة ما هُوَ ليْسَ بأهلٍ أنْ يَتَولّجَهُ فضْلًا عَنْ يقولَ فيهِ ، منْ أنّه يُوقِن أنَّ طَاقاتِهِ وإمكانَاتِهِ مَحدُودَةٌ لا تُحِيطُ بكلّ ما هُو حقِيقةٌ في هذه الحَياة.

وَلذَا كَانَ أوّلُ سِمَةٍ مِنْ سِماتِ "المتّقين" الّذِينَ كَانَ القُرْآنُ هُدًى لَهُمْ أنّهُمْ الّذِين يُؤمِنُونَ بِالغَيْبِ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم • ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ • الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (البَقَرَة:١-٣)

هو عقلٌ كلُّ أمْرِهِ وفِعلِهِ إيْمَانِيّ أيًّا كَانَ مَجَالُ فِعْلِهِ ، سَواءٌ فِي بَاعثِهِ وَمُمَارَسَاتِهِ مَعًا ، أوْ فِي باعِثِهِ وَحْدَهُ . هُــو لَا يَنْبَعِثُ إلَى لَهْوِهِ ولَعِبِهِ المَأذُونِ بِهِ إلَّا مِنْ إيمانِهِ . ﴿ وهومُؤمنٌ ﴾ . إنّها حَالٌ لَا تُفارِقُهُ فِي أيِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ حَياتِهِ.

عقلٌ يَطْلُبُ الحِكْمَةَ وَالْحُجَّةَ القَويمَةَ حَيْثُ كانَتْ . يَرَى أنّهُ هُوَ الأَحقُّ بأخذِها، أيّا كان صانِعُها، وإن رَغِبَ عَنْها كلُّ الأنامِ ، وإنْ كانتْ فِي خزانةِ خَصِيمٍ مُبِينٍ، الأهَمُّ الألْزَمُ أن تكونَ حِكْمَةً وأنْ تكُونَ حُجّةً قَويمَة ، ولنْ تكُونَ كذلكَ إلّا إذا كانَتْ ذَا نَسَبٍ عَرِيقٍ مَكِينٍ مَتِين بأصُول "الإسلام" كتابًا وسُنّةً . كلُّ ما لَا يَتعاندُ معَ بيانِ الوَحْي ولَا يَتَباعَد وفيه نفعٌ هو الأحقُّ بِأخذِهِ وبِربّهِ وباسْتِثمارِه فيما خلقَ لَهُ، فذلك شُكرُ المنْعِمِ بِه .

هُوَ عَقْلٌ مُسْتَحْضِرٌ فِي كُلّ أَحْوالِهِ وأَفْعالِه قَوْلَ سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ فيما رَواه مسلمٌ في كتابِ " الإيمانِ " مِنْ صَحيحِه بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ».

عَقْلٌ عَلِيمٌ بَأنّهُ مُكَلَّفٌ بِصُنْعِ الْجَمالِ وَإتقانِه فِي جَمِيــعِ الأحْــوالِ وَالأقــوالِ والْأفْعالِ ، فهُو يَبْغَضُ القُبْحَ فِي كُلّ شيْءٍ وكلّ ما هو منبثقٌ من كفرانٍ وعصْيَان إنما هو القُبْحُ ، وَهُو يعشَقُ الْجَمَالَ الْمُنْبَثِقَ مِن الْجلالِ ، وَلِذا كَانَ مِــنْ حِكْمَتِــهِ فِيهِم: " إِيَّاكُمْ وَخَضْراءَ الدّمَنِ: الْمَرْأَةُ الْحَسْناءُ فِي المَنْبتِ السُّوءِ " ، ومِن أصولِه: أيّاكمْ والثقَافَةَ الْمُسْتَزْرعَةَ فِي حَدائِقِ الْكُفْرِ : فِي حــدائقِ الْعَلْمانيّــةِ الْفَلْسَــفِيّةِ واللبْراليّةِ العَقَدِيّةِ.

عَقْلٌ يُحِبُ الأَصالَةَ فِي الجَمالِ : أن يَكُونَ الجَمالُ مُنْبَثِقًا مِنْ داخِلِ مَا هُوَ قــائِمٌ بِهِ. ولَيْسَ مِنْ خارِجِهِ. وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ عِنايَةُ هَذَا العَقْلِ فِــي البَيــانِ بالْمَعــانِي ، فَجَعلَها مَعْدِنَ الجَمالِ وَمَنْجَمِهِ ، وَجَعَلَ الصُّورَةَ الدَّالَّةَ عَلَيْــهِ مجْــلاهُ وَمَشْــهدَهُ ، فَعِنايَتُهُ بالصُّورَةِ مِنْ عِنايَتِهِ بِالْمَعْنَى ، وَدَلَّ بالإبْلاغِ فِي الاعْتِناءِ بالصورة على أنَّ جمال المَجلَى وَالْمشْهدِ (الصّورة) آيةٌ بيّنةٌ علَى جلالِ المَنْجَم والمعــدن وشــرفِ المحتوَى .

تلك رُؤية العَقلِ المُسلِم للجمَال في كلّ شيْءٍ حسّيٍّ أو غَيرِ حِسّيٍّ .

وهُوَ إذْ يسْترفد ، فإنّما يسترفِدُ ممَّا اكتملَت رؤيتُه جمال ما انبثق منه ما يسترفِدُ ، فإذا رأى ما يسترفِدُه مُنبثِقًا ممَّا لَا يَتَحقَّقُ فِيهِ الجَمالُ المُنْبَثِقُ مِن الجَلالِ الَّذِي قَوامُهُ "الحَقُّ" و"الخير"، فإنَّه لَا يَسْترْفدُهُ البَتّةَ . ومنْ ثَمّ هو متطهرٌ من أن يَسْترفد في"العلوم"الإنسانية"مِن عقل سُقي رَغدَةَ الإلحاد .

"العقل المسْلم" ليستْ علاقته بــ"الإسلام" علاقة انتساب، فما هو بعقلٍ إسلاميّ، كلاً . إنما هو عقلٌ مُسْلِمٌ جميع أمره لهدْيِ الكتاب والسّنّة ، فهو "عقلٌ مُسْلم" وفرقٌ جَليٌّ غيرُ خفيّ بيْن قولنا: "عقلٌ مسْلمٌ" ، و"عقلٌ إسْلاميّ" .

تلْك هِي خصَائصُ العَقلِ المُسْترفِدِ وضوابطه بَسَطْتُ القَولَ فِيها لِما أَراه مِنْ عَظيمِ أَهَمّيَّةِ فقْهِهَا وَاسْتحضارِها ، فلَيْسَ كَلامُنا مَع غَيْر هذا العَقلِ المَلِيكِ تِلك الخَصائصِ المتجلية في جميعِ أمرِه .

ثَالِثًا: الْمُسترفَد منه :

هُوَ العَقلُ الآخرُ: أيْ العقلُ غيرُ المنضبطِ بالإسْلامِ كتابًا وسُنَةً اعتِقَادًا وسلُوكًا. عقلٌ يتخذه صَاحبُه مصدرًا مركزيًا لا يصْدر عنْه ، ولا يحتكمُ إلا إليْـــه ، ولــيس لغيرِهِ عليْه سُلطان بلْ له هو السُّلطان علَى كلّ شَيْءٍ .

عقلٌ يَجْحَدُ أن يكون هنالك نَصّ إلهيّ مقدسٌ مُتعالٍ لَه عَليْهِ سُلطانٌ ، وإليْــه الْمحتَكمُ .

هو العقلُ غيرُ المليكِ لشيءٍ من خصائصِ "العقلِ الْمُسْلم" التي بسَطت تبيانًـــا قبلُ ، سَواءٌ كان صَاحبه ينتسبُ إلى العروبَة أوْ لِغيرِها، وسواءٌ كَانَ عَقلاً مُسالمًا العقلَ المسْلمَ أوْ مُصَادِمًا صَادًا عَنْه : معتقَدًا ومَسْلَكًا . هوعقلٌ آخر عندِي . ذلِــكَ مَذْهَبِي . (١)

(رَابِعًا) : مجالُ "الاسْترفْاد"

هُو "الدّراساتُ الإنسانِيّةُ" عامَّة ، والدّراسات المُتعلّقةُ بفِقهِ الكِتابِ والسُّنّةِ وعُلُومِ لِسانِ العَرَبيّةِ خَاصّة .

(١) ينظر: العقلانية فلسفةٌ متجددة، تأليف: جون كوتنغام، ترجمة:محمود منقذ الهاشمي،نشــر مركز الإنماء الجضاري حلب.(ط:١- ١٩٩٧م) ص/١٢

من أهلِ النّظر من يذهبُ إلى أنّ "الدّراسات الإنْسَانيّة" يُقصَد بها دِراسَة اللّغاتِ والآدابِ والتّاريخِ والفلسَفةِ والفنّ والمُوسِيقَى والمَوضُعات المُماثِلة الّتي تَختلِفُ عَن الدّراسَات "الفسْيولوجيّة"و"البَيْلوجيّة" أَوْ هِي الدّراسات الّتي تؤدّي إلى فَهمِ حياةِ الإنسانِ وسلوكِه وَتجارِبِه الإنْسَانيّة ، وتهدُفُ إلى توسِيعِ مَعلوماتِ الفرْدِ وثَقافتِهِ العَامّة وتنمية قدراتِه العقليّة [1].

والذي إليْه أذهبُ أنّ "الدّراساتِ الإنسانيّة"هي كلُّ مدارسةٍ يَصْطَنِعُها الإنسانُ، ويكونُ لِشأنِ الدَّارسِ وأحواله مِنْ نحوِ الإيمانِ والكُفرِ، والأخلاقِ والسُّلوكِ ، وأحوالِه النّفسيّةِ وثقافتِه وثقافةِ قومِهِ وبيئتِه أثرٌ فِي مُمارَستِها ونَتائجِ دِراستِها ــ سواءٌ كانتْ تلْك الدّراسَاتِ في مجالِ بيانِ الوَحي قُرآنًا وسنةً، أوفي مجالِ بيان البشر .

والدّراسات الإنسانيّة – عندِي - ضربان :

(**الضَّربُ الأوَّلُ**) : ما كانَ نعتُها بــ"الإنسانيّة" مِن أنّ إنسانيّة الدَّارسِ ذاتُ أثرٍ في مدارسةِ قضاياهُ ومَسائلِه، وإنْ تَكُنْ تلك القضَايا والمَسائل ليْستْ مِنْ صُنع الإنسانِ ، وذلِك ما يُعرَف بالدّراساتِ المُتعلقةِ بالإسْلامِ عَقيدةً وشريعَةً ، كما جاءتْ فِي بيَانِ الوَحي قُرآنا وسنّةً ، فالدّراسات العَقديّة ،والفِقهيّة دِراساتٌ تَدرسُ قَضايا ومسائل في بيانٍ لَيسَ منْ صُنْعِ الإنسانِ ، إنّما هِي وَحْيٌ، فَهي إنْسانِيّةٌ نَظَرًا إلى حلِيْةِ الدَّارسِ، لا حِليةَ ما تَكُونُ فِيهِ المُدارسَةِ.

(١) ينظر معجَم مصطلحات الدراسَات الإنسانية ،والفنون الجميلة والتّشكيلية، تاليف:أحمد زكي بدوي.نشر دارالكتاب المصــري(القاهرة)دار الكتــاب اللبنــاني. (بيــروت)(ط:١) عــام ١٤١٢هــ ص/١٨١،رقم المصطلح:(٦٤٨)

(**والضّربُ الآخرُ**) : ما كانتْ قضاياه ومسائلُه منْ صُــنْعِ الإنســانِ ، ومتعلّقــة بِأحوالِه وشؤونِه ، وكانت إنسانيّةُ الدّارسِ ذاتَ أثرٍ فِي مُدارسَةِ تلــك القضَــايا والمَسائل ، فهُو إنسانيٌّ مِن حَيْثُ الدَّارسُ والمدروسُ .

وهذا الضربُ تَنْدَرِجُ فِيه الدّراساتُ اللّغُويّةُ ، والأدبيّةُ ، والنّقديّةُ، والتّاريخيّةُ، والنّفسيّةُ ، والفلسفيّة ، والاجتماعيّةُ ، والسّياسيّة ، والفَنِّيَةُ ...

وبِهذَا لا يَدخُلُ فِي " الدراسَات الإنسانية" التي هي مناط القــولفي الاســترفاد منها هذا مَا يُعرَفُ بالدّراساتِ العِلْمِيّة العَمَليّة التّجريــبيّة ومَا يَتعلّقُ بها ، فهــي دراساتٌ لَا أثر لإيمانِ صَانعِها باللهِ ﷻ أوْ كفره بهِ في نتائجِها ، ولَا لِأخلاقِهِ ولَا لِلسانِه وثقافتِهِ ، هذِه الدِّراساتُ استرفاد"العقل المسلم" من مناعجها وأدواتهــا ،وثمارها لضرورةٍ ،لا ترفهًا ، لا كلامَ لنا فيهِ هُنَا ؛ لأنّه ليس ثَمَّ خَطرٌ ما مِنْ هذا الاسْترفادِ إذا ما دَعَتْ ضَرورةٌ إليْهِ .

وبهذَا نُفرّقُ بيْن المَجالَيْن ، ومَن عَمَد إلى الخلْطِ بيْنهُما ، والزَّعم باســتواءِ القولِ فِيهما ، وأنَّ مَن استرفَد من العلومِ العمليّة التّجريبيّة ، فاستعمل مخارعاتهم العلمية عليْه أن يسترفِدَ من العلومِ الإنسانِيّة مذاهبهم ومناهجهم وثمــار فعلِهــم سِواءً بسواءٍ ، أوْ يَدَعَ " الاسْتِرْفَادَ " فِيهما جميعًا ، إنما هُو زعمٌ ضِلِيلٌ .

(**خامساً**) **المُسْترفَد مِن الدّراسَات الإنْسانِيّة** :

المسْترفدُ مِن الدّراساتِ الّتي هِي مناطُ النظرِ هُنا ليْسَ نتائجَ فِعلِ العَقلِ الآخر وثمره لنطعمها ، بلْ مناط النظرِ هنا هو المناهجِ والأدواتِ شريطةَ ألَّا تكونَ هــي أوْ ما تُفضِي إليه غيرَ متعاندة مع العقيدةِ الإسلامية وشريعتها ، أَوْ غير متوائمة مع لسانِ العربيةِ فِي الْفَهمِ والإفهامِ ، فهذان شــرطا صِــحةٍ لا محيــدَ عَنْهمــا. بتحقِيقهما ينضبط شأن الاسْترفادِ الأمجد الأحمَدِ .

العلمُ بكيفيّة صناعةِ المنهجِ المتوائم مع السّياق الحضاريّ لما استرفدِ فيما نحنُ بحاجةٍإليْه ؛ لِيتّخذَ مِن ذلك خِبرةً فِي صِناعةِ مِنهاجٍ مُتــوائِم مَــع السّــياقِ الحضاريّ الْمسلِم لمن يَسْترفد إنّما هو مُعينٌ على حُسنِ تجديدِ حركــة السّــعي الْمسلم وتطويرها ؛ لتحقِيقِ رِسالةِ الاسْتخلافِ الإعماريّ للحيــاةِ كونًــا وإنسَــانًا وإِخراجِ النَّاسِ مِن الظّلماتِ إِلَى النُّورِ .

وكذلِك العِرفانُ المحيطُ المُتغوّر بِما يَلْحقُ تلْــك المَنــاهج المُســترفدِ كَيفيّــة صِناعتِها وأدواتِ تلك الصّناعةِ مِن عَوارٍ ونقصٍ ونحو ذلك معينٌ علَى أنْ يكــونَ المسْترفِدُ في مَنعةٍ من التردّي فِي مِثْلِها أو قَرِيبٍ منْها . وما كان بسببٍ منْ سُوءِ التّوظيفِ أو التّجريب ، والإفادة من ذلك كلّه.

إنَّ كلَّ مذهبٍ أوْ مَنْهجٍ أوْ نَظريَّةٍ كان هُوَ أوْ ما يُفضِي إليْه فيه مــا يَخــدِشُ العَقيدَةَ الإسْلامِيّة والأخْذَ بشَّريعتِها ، أوْ لا يَتواءمُ مَع سَنَنِ العربية فــي الفهــمِ والإفهام هو حَرِيمٌ زَنِيمٌ .

كذلِك تبيّنَتْ لَك حقيقةُ مُكوّناتِ القَوْلِ فِي هذِه الورَقَةِ وضوابط تلك المكونــات فِيما أُرَى .

جمعةُ القول :إنَّ حسن البصر والاستحضار لضوابط الاسْترفاد فريضةٌ علميةٌ ومنْ قبْلها فريضةٌ إيمانية ، فَمنْ لَم يُحسن ذلك فحقٌ عليْهِ أن يتّقِي ذلك الاسْترفاد مهما كانتْ حاجتُه، ذلك ما أذهبُ إليْه ولَكَ بَلْ عَليْكَ نقدُه أوْ نَقضُه وعليْك تَبْيــين ما أنت تراه هوالحقّ المُبِين .

• • • • •

إسلامُ العقلِ للآخر دون مناقدةٍ أول خطايا الإنسان وأخطرها

في المَوضِعِ الأوّلِ الّذِي قَصّ اللهُ ﷻ قِصَّةَ خلق أبينا آدم ﷺ لَمْ يكنْ بيانُ ما خُلِقَ منْه أبونا آدمُ ﷺ ، كَما كان شأنُ القولِ فيها في ما تلاه من المواضعِ الأُخر في السّيَاقِ الترتيليّ للقُرآن.

كانَ القولُ فِي أوَّل مَوضعِ إنّما هُو فِي مَا خُلِقَ لَه أبُونَا آدم ﷺ وذرّيّتــه : قال الله ﷻ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَــةِ إِنِّــي جَاعِــلٌ فِــي الْــأَرْضِ خَلِيفَـــةً ﴾ (البقرة:٣٠) لَمْ يقلْ إنّي جاعلٌ مِن الأرْضِ خَلِيفةً ، كما قال ﷻ فــي غيــر هــذا المَوضعِ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٨) وفي هذا السياقِ – أيْضًا – جاءَ الإنْباءِ بمنّة تَعليم آدمَ ﷺ الأسماءَ كلّها الّتِي هِي أصْلُ تعلّم كلّ شَيْءٍ ﴿ وَعَلَّــمَ آدَمَ الْأَسْــمَاءَ كُلَّهَــا ﴾(البقــرة:٣١) والتَّعليمُ هنا فيما أذهبُ إليْه ليْسَ تعليم تلْقِين ، كما نلقّنُ أطفالنا ، بل هُــوَ تعلــيمُ إلهامٍ وإقدارٍ وتوفيقٍ .

و"الأسْماءُ" هُنا هِي السّمات . لا أَراها جَمعًا لكلمة "اسم" . أراها جمعًا لكلمة "سِمة " أو"وَسم" على غيرِ قياسٍ ، وهو ما ينبئُ عن جوهرِ الشّيْءِ وحقيقتهِ، ومن هذا ما يُسمّى بـــ" التوسم: الفراسة" ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (الحِجر:٧٥)

رَوَى الطّبرانيّ في المعجمِ الأوسط: بسنده عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ» (حسّــنَهُ الألبــانِيُّ فِــي السَّلسةِ الصَّحيحة رقم: ١٦٩٣)

المعنَى – عندي – ألْهمَه استْبصار السّمات: "الصَّفات" الَّتِي علَيْها الأشْــياءُ، لِلْعلم بحقِيقتها ، وجوهرِها وخَصائصِها. وهذا قَد وَرِثهُ عَنْه الأعيانُ إيمانًا وعلمًا على مرّ الأحقابِ .

مَن أَحَسنَ العِلْمَ بالأسماء" السِّمات" المبنيِّ على التَّفكــرِ والتبصّــر والتَّــدبُّر انكشَفَتْ لَه حَقيقةُ ذلك الشَّيْءِ وجَوهره ، وخَصائصِه، فكانَ بملكِه أن يعرفَه – فِي هذا السِّياق جاءَ الإنباءُ بأنّهُ ﷻ جَاعلٌ فِي الأرضِ خليفةً ، والإنْبَاء بأنّــه علّــم ذلك الخَليفةَ الأسْماءَ كلِّها . هذان :النبأُ بجعله خليفة،والنبأُ بتعليمه الأسماءَ كلّها لَمْ يردْ ذكرهُما مَقرونَيْنِ أوْ فَريدَيْن إلّا مرّةً واحدةً ، في هذا الموضعِ الفريــدِ ، ممَّا يَستوجِب العلمَ بما بيْن المُنبَئِ به في كلٍّ من علاقةِ وثقَى فَعِيلَةً في الآخر.

الخلافةُ فِي الإرض بغير التّوسّم فَسادٌ، والــــتوسُّمُ بغيــرِ خلافــةٍ تعطيــلٌ. لا مكانَ في هذِه الرّسَالة : الاستخلافِ : اسْتِعْمارِ الحَياةِ كوْنًا وإنْسانًا وفقَ المُرادِ الشّرعِيّ للهِ ﷻ لغيرِ "المُتوَسِّمِينَ" . تلك هِي الحقِيقة .وهذا مهمٌ جدًا

لما كان تلك رسالةأينا "آدم" ﷺ وذرّيته أقامَه فِي ابتلاءٍ وفِتنــة : أدخلَــهُ الجنَّةَ وأباحَ لَهُ كلَّ شَيْءٍ فِيها إلَّا شجرةً ، فَوَسْوَسَ لَهُ الشَّيطانُ عدوُّهُ المُسْــتَكْبِرُ عَلَيْهِ مستثمِرًا مَطامِعَ الإنسان وطموحاتِه مُغريًا لَه أَن يأكلَ من الشَّجرةِ الّتي نُهِي عنها ؛ لِيتحقَّق له طموحُه فِي الخلودِ والتَّملُّك، وهنا كانَت البَلِيّة : لَمْ يَتّخِذْ أبونا آدمُ ﷺ موقفَ "المناقدة" لِمَا وسوسَ إليْه بـــه الشَّــيطانُ ، وهُــو المُسْــتحقِرُهُ، والرَّافض السُّجود له استكبارًا، نَسِيَ أبونا آدَمُ ﷺ عهدَ ربِّه ﷻ ، ونسِيَ عــداوةَ الشَّيطانِ له تحتَ تأثيرِ شَهواتِ النَّفسِ البَشريَّةِ فِي الخُلود والمُلْك ، فلَمْ يَنتقِدْ مـــا وَسوسَ بِه الشَّيطانُ لَه ، فكانت البَليّة .

ذَلكَ هُوَ الدّرْسُ الأَوّلُ وجودًا وَمقامًا والأهَمّ تَعلُّمًا وَتأدُّبًا والأَخْطَــرُ أثــرًا ، وَعَجِيبٌ أنّا مَا زِلْنا نَحْنُ ذُرِّيتَهُ غافِلين أوْ مُتغافِلِينَ عَنْه تَحْــتَ تــأثِيرِ الشُّــبُهاتِ العَقلِيَّةِ ، أَو الشّهَواتِ النَّفسِيَّةِ ، لَا نَنتَقِدُ ما يَفِدُ إليْنا ، ولَاسيّما مِن العَقلِ الآخر، المُستكبِر الّذِي لَا يرَى غَيْرَه إلّا بِمِقدارِ ما يَنْتَفِعُ بِهِ .

يَقولُ الأسْتاذُ أبُو فِهْرٍ مَحْمُود مُحمّد شاكِر: " آفَةُ العَقْلِ الأُورُبيّ أنّه لَا يَرَى فِي الدُّنيا إلَّا نفسَه..."[1] والظنُّ الغالبُ أنَّ هذَا ما سَيُفْضِي بِه إلَــى تَحْطــيم نَفسِــهِ بِنَفْسِهِ.

مِن هُنا كانَت فَريضةُ مُناقَدَةِ كلّ شَيْءٍ مِنْ قَبْلِ الاسْترفادِ ، فمَن اسْترْفَدَ مِــنْ غَيرِ الكِتابِ وَالسّنةِ النَّبَويّة مِن قبْلِ أن يَسْتَنقِدَ ويَسبِرَ ، فإنّما هُو حاطِبُ لَيْـــلٍ ، لا يُؤخَذُ منْه، ولَا يُؤخَذُ عَنْه.

●●●●●

(١) أباطيل وأسمار – مطبعة المدني، نشر مكتبة الخانجي – القهــرة ط(٣) ســنة ٢٠٠٥م، ص:١٨٤

(التّكافلُ الفكْرِي الحَكِيمُ ضَرُورَةٌ حَضارِيّةٌ)

لا ريبَ فِي أنّ الله ﷻ قدْ تفضّلَ علَى عِبادِهِ بما يُعينُهم علَى التَّمييز بيْن "الطَّيب" و"الخبيثِ" ، وما هُو نَافعُهم ، وما هُو ضارّهُم ، وهُو ما تعارَف عليْه النَّاس بأنّه "العقل" :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النَّحل:٧٨)

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (المُؤمِنُون:٧٨)

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ • ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ • ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ (السَّجدة: ٨، ٩)

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (المُلْك : ٢٣)

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ • وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ • وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (البّلد: ٨- ١٠)

صرَّفَ الله – تعالَى – البَيانَ عَن هذِه المنّةِ الرَّبَّانِيَّةِ وَحَثّ عَلَى شُكْرِها بِحُسْنِ استِثْمارِها فِيما خُلِقَتْ لَه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾،﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ فَالكُفرُ بها باسْتعمالها في غيرِ ما خلقتْ لَهُ أوْ بتَعطيلِها إنّما يُفضِي إلَى الكُفْرِ بمَنْ أنْعمَ بها ﷻ .

وَمَنْ أَعَاقَ غَيْرَه عَنْ أن يشكر هذه النّعمة بأيّ سَبيلٍ مِنْ سُبلِ الإعَاقةِ الْحسّيةِ وغير الْحسّيةِ ،ومنْها عدمُ توفِيرِ ما لا يَتحقّقُ الشّكر الحميدُ إلّا بهِ ومنْها إقامَتُهُ فِي مَسَاقِ نفسِيّ أَوْ صِحيٍّ أَوْ اجتِماعِيّ أوْ اقتصاديّ أَوْ سِياسيّ أَوْ أَمْنِيٍّ يُعِيقُه

عَنْ يُحققِ شكرَ اللهِ ﷻ عَلَى هَذِهِ النِّعمةِ – مَن أعاقَ ، فهُوَ مُتَسبّبٌ فِي الوقُوعِ فِي هذا الْكفرانِ ، ومَنْ تسبّبَ فِي إيقاعِ إثْمٍ ، فَهو كَفاعِلِه سواءً بسَواءٍ ، فليحذرْ كلّ مَن ابتُلِي بنعمة الولاية الخاصّة أو العامّة على مُسلمٍ ،وإن كان فردًا.

إذا ما كانَ العَقلُ مِنْحةً ربّانيّةً للنّاسِ كافّةً ، ومَنْ سُلِبَه رُفِعَ عَنْهُ التّكلِيــفُ ، والنَّاسُ أُولُو الْعقُولِ عَلَى الرَّغم مِنْ أنّهم يتَساوُون فِي تعرّضِهم لهــذِه المِنْحَــةِ الرَّبَانيّة إلاَّ أَنّهُمْ لَيْسُوا سَواءً فِي على درجةٍ سواء في قدرتها مثلما همْ ليْسُــوا سَواء فِي القوامةِ عليْها رعايةً وحمايةً .

وهذا التَّنوعُ فِي تَوظِيفِ هذِه "المِنْحَةِ الْكُليّةِ : العَقل" يُفضِــي إلَــى ضَــرُورَةِ التَّعاوُنِ والتَّكافلِ والتّكامُلِ بيْن أولِي "النّهَى" فحَيْثُ كان التَّنوّع كَانَتْ المُفَاضــلة، وكان الاختلافُ والاتفَاقُ والاجتماعُ والافتراقُ . وحاجةُ كُلٍّ إلَى تَبَصُّر ما قام فيــه الاختلافُ ووتبَصُّر بواعِثِه وكيفياتِها ومآلاتِه ، تحقيقًا للتّكامُلِ والتّكافل اللّذين هما مِن فرائض تحقِيقِ رسَالة الاسْتخلاف.

التّكافلُ والتَّكامُلُ العَقليّ بيْن البِيئاتِ البَشريّةِ علَى اختِلافِ مُقوّماتِ حَضارتِها أمرٌ لا مَحيدَ عَنه ، وهمــا علَى هذا الشّأن ليْسَ أمرًا طليقًا ، فليس في التّصرُّفاتِ البشريّة أمرٌ طليقٌ. لكلّ تصرّفٍ أصولُه وضوابطُه العواصِمُ مِن القَواصِمِ ، مثْلَمــا له بواعثُه ومقاصدُه . أنتَ في أيّ تصرّف مِن تصرفاتِك الحِسيّة ، وغير الحِســيّة خاضعٌ لباعثٍ يَبعثك عليْهِ ومقصدٍ ترمِى إلى تحقيقــهِ ، وغايــةٍ تعمــلُ علَــى بلوغِهــا.

وأنتَ فِي مُمارستِك هذا السَّعيَ مَضبوطٌ بأصولٍ ومعصومٌ بضوابط ؛ لِيتحقَّــق لِهذا التّصرّفِ حِليةُ" الحِكمة :

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَــذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة:٢٦٩)

مِنْ هنا كان استرفادُ العقول واستمدادُ بعضِها من بعضٍ هُو الفطرة ، والجِبِلّة وهذا ما هدًى إليه ما أُثر مِن قولِ أولِي الأباب : " الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُــؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا" .

وقد رُفِع ذلك إلَى سيّدنا رسولِ الله ﷺ بسند ضعيف [١]

وهِي كَلِمَةٌ إنْ ضَعُفَ سَنَدُ رَفعِها إلَى سَيّدِنا رَسُولِ الله ﷺ إلّا أنّها فِي مَنطِقِ العَقلِ الصّحيحِ ، ومَنطِقِ الواقعِ الصّريحِ حَقيقة. وهي نفسها حكمة، من أنّها تحكم التّيقن بأنّ المنشودَ والماخوذ حكمةٌ . وهذا يستوجبُ التّفتيشَ والتّفرّس والسّــبر المُتَعمّق الْمُتَغَوّر ، وهذا نزولًا على ما جاء به الهديُ القُرآنيّ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَــا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُــلُّ أُولَئِــكَ كَــانَ عَنْــهُ مَسْــئُولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦)

• • • • • •

---

(١) روى الترمذي في كتاب" العلم" من جامعه بسَندِه :حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْوَلِيدِ الْكِنْــدِىُّ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُمَيْرٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْفَضْلِ عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِىِّ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَــالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ الْفَضْــلِ الْمَدَنِىُّ الْمَخْزُومِىُّ يُضَعَّفُ فِى الْحَدِيثِ مِنْ قِبَلِ حِفْظِهِ. ورواه ابن ماجه في كتاب الزهــد " من سننه .

أدبيات مدارسة المذاهب والمناهج المسترفدة في مساقات التعليم والتعلّم

عليْنا أن نفرّق بيْن مساقين في علاقتنا بـــ"العقل"الآخر" مذهبًا،ومنهجًا،و مادة وممارس، ومنْتجًا :

مساقِ المُثاقَفَةِ وَالاسْتِثمارِ وَالاسْتِطْعامِ.

ومَسَاقِ التَعلِيمِ والتّعلّم الذَاتي والتّشَاركيّ .

أَبَنْتُ لَك عمَّا إليْه أذهبُ في هذه القَضيّة في مســـاق المُثاقَفَـــةِ وَالاسْـــتِثمارِ وَالاسْتِطْعامِ.

أمّا مَسَاقاتُ التّعْلِيمِ والتّعلم والتّدريبِ وتَرْبيـــة الْعُقُـــولِ الْعلْميّـــةِ وَصِـــناعةِ الْباحثِين وَالْعلماءِ فالأمر مختلفٌ.

في هذه المساقاتِ لَا يُقصَى مذهبٌ أوْ منهج، وإن كان جدّ عَنِيدٍ مع " الْعَقـــلِ الْمُسْلِم ".

جَميعُ ما يُنتجُهُ العقلُ البَشريّ هُو مَناطُ مُدارسةٍ علميّـــةٍ مَوضـــوعيّةٍ جـــادّةٍ تَكشِفُ عمّا فِيهِ إن خَيْرًا وإنْ غَيرَه ، وتُبينُ عَنْ مَعالِمِ الْخللِ أوْ الخَطَإِ أوْ الخَطرِ، وَتَضعُ اليدَ عليْها وَتعُدّها واحدةً واحدةً ، وتُسمّيَها شَيْئًا ، فَشَـــيْئًا، وتُبـــين عَـــن الأسبابِ فِي استقراءٍ تامٍّ ومَوضوعِيّةٍ كامِلةٍ .

تلْك سُنةٌ انْتهَجها سيّدُنا حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ ﷺ ، وأقرّه عليْها سيّدنا محمدٌ ﷺ كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ ، وكُان هُو ﷺ يسَالُه عَـــنِ الشَّـــرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَه (متفقٌ عليْه)

سياقُ التّعليمِ والتَعلمِ والتّدريبِ وصِناعةِ العلماءِ يُوجبُ ذلك ؛ لأنّه سياقُ إعداد مجاهِدين لنُصرةِ الحَقّ بالحَقَ، ومُدافعةِ الشّرّ بالخيرِ ، وبغَيْر مَعرفَـــةِ "الحَـــقّ"مِنْ" البَاطل"ومعرفةِ "الخيرِ" مِن "الشرّ" لَن تَتحقَق تلْك الرّسالَة.

فالمساقاتُ التّعليميّة والتّعلّمِيّة الَّتِي تُقصِي مذاهبَ "الباطل" و"الشّرّ" ومناهجها عن المُدارسةِ المَوضوعيّةِ الجادّة هِي مساقاتٌ لَا تَصنع إلّا عُقولاً مُتهافِتة، تَقتلِعُها رِياحُ الاعتراضاتِ الوَاهِيةِ ، فَكيْف بأعاصِير الشّبهاتِ المتلاحقةِ ؟

سِياسَة الإقصَاء إنّما هِي سِياسَة الضّعفاءِ والمخلدين إلى الدّعةِ ، أمّا الأقوياء فمناهجهم في مثلِ هذا:﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النّحل:١٢٥)

فرقٌ بيّنٌ بَيْن مدارسةِ تلك المذاهب والمناهجِ فِي سياق المُثاقَفَةِ وَالاسْتِثمــارِ وَالاسْتِطْعامِ وسياق التَّعليم والتّعلّم ... ومن جعلهما سواء إقبالاً أوْ إدبــارًا فَقــدْ أفْسَدَ.

وهذا يستوجبُ على من ابتلي بنعْمةِ صِناعةِ العقولِ المُسلمةِ أن يكونَ بَصيرًا بكلّ المذاهبِ والمناهجِ خَبيرًا بأصولِها الفَلْسفيّة والعَقدية وموقع كلٍّ مِن الإسْــلامِ عقيدةً وشريعةً وأَخلاقًا. ويستوجبُ عليه أنْ يُدارسَ طلابَ العلمِ الأصولَ العقديّة ، والفلسفيّة لِكلّ المذاهبِ والمناهجِ المراِد مُدارستها في مَوضــوعيّة ، وإتقــانٍ ، ومُصابرةٍ ، وتطهّرٍ من داءِ العجلة والاسْتهانة.

وَمِنْ ثَمَّ أدْعُو إلى أنْ تَجعلَ الجامعَةُ فِي مساقَاتِ التّعليم والتّعلّمِ والتّدريبِ فِي مَرْحَلةِ " الدّراساتِ الْعليا " بدرجتَيْها : "التّخصّص" و"العالميــة" فــي الدّراسَــاتِ الإنسانية جمعاء مدراسة كافة المذاهبِ الفلسَفيّةِ الْمناوئةِ والْمعاديةِ للعقلِ الْمسْلِمِ وعلومِهِ وحضارتِه ، فهذه المدراسةُ ضَرُورةٌ جهاديّة.

كيف يكون العالمُ مجاهدًا مدافعًا عن الإسلام، ماحقًا الشبهاتِ المتلاحقة إذا لم يكن بصيرًا بالأصول الفلسفية لما تصدرُ عنه تلك الشُّبهات ، إن لم يكن بصيرًا بها مسْتحضرًا لها متقنًا الإفادة منها كان كساعٍ إلى الْهيجا بِغيرِ سلاحٍ .

وكذلك الأمرِ وجوبُ مدارسة اللُّغات التي تنشأ في حضارتها تلــك المــذاهب وتنشر بها في النّاس .

لا سبيلَ إلى الدّفع عن"الحقّ" الّذي قام في الإسلامِ عقيدةً وشريعةً وخُلقًا بغير العلمِ بلسانِ الّذين يُغيرون بشبهاتِهم وأضاليلهم على العقلِ المُسلم.

أَوَ لا ترَى أنَّ سيّدنا رسولَ الله ﷺ قد كلَّف سيّدنا زيدَ بن ثابت ﷺ أن يـــتعلّم لسان يهود ليتقي ﷺ شرّهم.

روَى التّرمذِي في كتب "الاستئذان" من جامعِهِ بسندِه عَنْ خَارِجَةَ بْـــنَ زَيْـــدِ ابْنِ ثَابِتٍ قَالَ : قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ : أَمَرَنِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَـــابَ يَهُودَ ، وَقَالَ « إِنِّى وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِى ». فَتَعَلَّمْتُهُ فَلَمْ يَمُـــرَّ بِـــى إِلاَّ نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى حَذَقْتُهُ فَكُنْتُ أَكْتُبُ لَهُ إِذَا كَتَبَ وَأَقْرَأُ لَهُ إِذَا كُتِبَ إِلَيْهِ.

ذلِك مِن هَدْي النّبوة، ونَحنُ الأحَقّ بأنْ نَكونَ بِه قائمين إيمانًـــا واحتســـابًا. فكلّ ذلك إنّهما هو ذُو قَدمٍ فِي مجاهـــدة "الباطلِ"بــــ"الحقّ"، ومُجاهـــدةِ "الشـــرّ" بـــ"الخير"، ومُجاهدةِ "الجَهلِ" بـــ"العلم" ، فكما أنّ الكلمة نورٌ يستضاء به الطّريقُ إلى مرضَاةِ الله ﷻ هِي أيْضًا سيفٌ ودرعٌ يُدفع بِـــه عَـــن "الإســـلام"، وســـيّد المجاهدين في سبيلِ الله ﷺ جعلَ المُجاهدَة بالكلِمةِ عَـــديل المُجاهـــدةِ بـــالأموالِ والأنْفس.

رَوَى أبو داود في كتب" الجِهادِ " منْ سُننهِ بسندِه عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ : « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ ».

وهذا مِن إكْرامِ اللهِ ﷻ للعلماءِ بكِتابه ، وسُنّةِ رَسُـــولِهِ ﷺ ، إذْ وَفّـــرَ لَهُـــمْ مَيادَينَ جِهادٍ عَدِيدة ، وَمُتَنَوِّعَةٍ وَمُتَجدّدةٍ ، فَيَلْقَى كُلُّ ربّه ﷻ وَهُوَ مُرابِطٌ فِي ثَغرٍ مِن الثغُورِ الفِكْرِيّةِ لِلأُمَّةِ. وَأَنْعِمْ بِها مُرابَطَةً صَفاءً فَتاءً .

والحمدُ لله ربّ العالمين،،،